تحدّيات اللغة العربية في عصر العولمة

الدكتور علي زائري‌وند*

دكتوراه في الأدب المقارن (الفارسية والعربية) بالجامعة الأردنية- أردن

الملخص

قد واجهت اللغة العربية كإحدى اللغات المهمة في العالم تحدّيات كثيرةً منذ زمن بعيد ومن أهم هذه التحديات هي العولمة وما تُمثّله من تحدّيات في الحاضر والمستقبل. رغم كل الجهود الحثيثة التي كان ومازال يبذلها علماء اللغة والأدباء في دراسة اللغة العربية، نجد أن معالجة ظاهرة العولمة ومدى تأثيرها في اللغة العربية لم تحظَ باهتمام بالغ كما ينبغي، وهذا أدّى إلى تحديات كبيرة تواجهها اللغة العربية في العصر الحديث.

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة ظاهرة العولمة ومدى تأثيرها في اللغة العربية وذلك بالتركيز على مسألتي الازدواجية والثنائية.

الكلمات الدليلية: تحديات اللغة العربية، العولمة، الإزدواجية، الثنائية.

---

*. E-mail: zaerivand@gmail.com

تأريخ الوصول: ٢٥/ ٠٢/ ١٣٩١ ؛ تأريخ القبول: ٠٩/ ٠٥/ ١٣٩١.

المقدمة

تُعدّ العولمةُ من الظواهر الشائعة في العصر الحديث إذ أثّرت بعد ظهورها وشيوعها في كثير من العلوم سواء في بُعدها الحضاري أو الثقافي، ومن المجالات التي تأثرت بهذه الظاهرة هي اللغة العربية حيث تُشكّل العولمة تحديات كثيرة للغة العربية فتؤثّر فيها سلبا. ومن أهم هذه التحديات وأخطرها هي الإزدواجية والثنائية وتداعياتهما.

رغم كل المحاولات التي يبذلها علماء اللغة والمعنيون من العرب والأجانب لخدمة هذه اللغة نرى من الأسف أن ظاهرة العولمة تنمو نموّا يوميا وتسيطر على اللغة العربية بشكل ملحوظ وجليّ فقلّما يهتمّ العلماء والأدباء بدراسة هذه الظاهرة وتأثيرها في اللغة.

تحاول هذه الدراسة معالجة العولمة والتحديات التي تواجهها اللغة العربية في عصر العولمة.

تبدأ الدراسة بتبيين مصطلحي العالمية والعولمة والفرق بينهما، كما تتطرّق إلى مفهومي الحضارة والثقافة. ثم تعالج تأثير العولمة في اللغة العربية منذ نشأتها إلى يومنا هذا وذلك بالتركيز على مسألتي الإزدواجية والثنائية وتداعياتهما. ويختم الباحث دراسته بتقديم بعض المقترحات للحيلولة دون توسع هذه الظاهرة ومدى تأثيرها في اللغة العربية.

تحديات اللغة العربية في عصر العولمة

إن اللغة العربية منذ سنين متكاثرة تواجه تحديات كثيرة ولاسيما بعد هيمنة الاستعمار على الدول العربية. ومن أهم هذه التحديات وأخطرها هي العولمة وما تليها من الإزدواجية والثنائية وتداعياتهما.

كَثُرَ الحديث منذ مطالع العشر الأواخر للقرن العشرين عن العولمة وعما تُمثّله من تحدّيات في الحاضر والمستقبل، ولكن الكثيرون يخلطون بين معنى العولمة (Globalization) والعالمية (Universalism)، كما يخلطون بين معنى الحضارة والثقافة.

إن العالمية هي تنافسٌ حُرٌّ في فضاء رحب من الإنتاج الفكري والوجداني، ليس فيه ضغط ولا إكراه و يفوز فيه ما له قيمة ذاتية من داخله دون فرض خارجي.

أما العولمة فهي نشر أفكار و مبادئ و مواقف و اتّجاهات نفسية و أنماط سلوك ومحاولة فرضها بطرائق شتّى منها الإقناع والترغيب والإلحاح عليها وتكرارها حتى تلين لها النفوس وتألفها وينتفي نتيجةَ ذلك استنكارُها وتضعف مقاومتها أو تزول.

الحضارة و الثقافة

بعد بيان معنى العالمية والعولمة يجدر بنا أن نفرّق بين العنصرين اللذين اختلطا في العولمة فظهرا كأنهما من صميمها وهما الحضارة والثقافة.

إن الحضارة تشمل جميع عناصر الجانب المادي من الحياة ممّا نحتاج إليه ونستعمله في السّلم والحرب، وهي التقدم العلمي والتكنولوجي وما نتج عنهما من مبتكرات ومخترعات وإنجازات ومن ثورة المعلومات.

أما الثقافة فتشمل الجانب المعنوي من الحياة وهي العقائد الدينية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية وما يترتب عليها من أنظمة وتعاليم و قيم و مبادئ و مُثل تنظّم أنماط حياة الناس وسلوكهم و ما لهم من لغة وأدب و فن و فكر. (الأسد، ٢٠٠٠م، ٦٤)

ومن منظار آخر للثقافة معنيان: معنى خاص ومعنى عام، أو معنى إبداعي ومعنى سلوكي.

أما المعنى الخاص أو الإبداعي فيتمثل في العقيدة الدينية للأمة ولغتها القومية ومجموع نتاجها الفكري و الأدبي و الفني.

أما المعنى العام أو السلوكي فيتمثل – بالإضافة إلى ما تقدم — في القيم والعادات والتقاليد وأنماط الحياة وأساليب التعامل.

ومما ينبغي إليه الإشارة هو أن كل حضارة كانت قد قامت على ثقافة هي التي أنشأتها ثم لا تلبث بعد ذلك أن تُنشئ ثقافة حضارية خاصة بها.

وفي العولمة الحضاريه المادية يحرص الفريق المالك على أن يُغرق الفريق الآخر بصادراته وأن يجعله مستوردا مستهلكا غيرَ قادر على أن يكون منتجا؛ لأنه لا يملك من وسائل البحث العلمي وأسرار الصناعة والتقدم والتكنولوجيا وما يؤهله لذلك.

أما العولمة الثقافية فهي أصل للعولمات الأخرى: السياسية والإقتصادية والإجتماعية والإعلامية وسواها، وذلك لأنها هي التي تُمهّد العقول والنفوس لقبول أنواع العولمة الأخرى.

فالعولمة الثقافية تعني سيادة ثقافة واحدة بلغتها وفكرها وأنماط حياتها وسلوكها، وتعني نشر مضمون تلك الثقافة ومحتواها من أساليب التفكير، والتعبير، والتذوق الفني، وأنماط السلوك والتعامل، والنظرة إلى الحياة والكون، وبذلك تُدمّر الخصوصيات الثقافية الأخرى.

والشيء الذي لايجوز عولمته قطعا هو الثقافة؛ لأن الثقافة ليست هي العلم، بل هي ما يُعبّر عن خصوصية كل أمة في عقائدها، وفي شرائعها، وفي قيمها، وفي نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وإلى الدين والدنيا، وإلى الفرد والمجتمع. (زعتري، ٢٠٠٢م، ٧٣).

فالعولمة ليست عنصرا واحدا بل إنما هي جو عام يشمل عددا من العناصر، ولاشك أن للعولمة تحديات ووسائل تساعد على فرض هيمنتها على العالم ولا سيما العالم العربي وما فيه من الثقافة واللغة، ومن أهم هذه التحديات والوسائل هي:

الدعوة إلى التشكيك في اللغة العربية وفي قدراتها على الوفاء بمطالب العلم الحديث وبمتغيّرات العصر وبعجز حروفها وكتابتها عن استيعاب تسجيل الكلمات والمصطلحات الأجنبية ونطقها، وكذلك استخدام اللهجات العامية بدل العربية الفصيحة في الخطب والأخبار والصحف والمدارس والجامعات.

إشاعة مصطلحات جديدة ذات مفاهيم ومضامين تحلّ محلّ المفاهيم والمضامين الأصلية التي تتصل بحياة الأمة وشخصيتها وحقيقة وجودها.

- نشر أنظمة الفكر والتعليم ومصطلحاتها، وتعميم أنموذج المؤسسات التعليمية الغربية وانقلاب الجامعات من نظام إلى نظام آخر.

- الاتفاقيات والمعاهدات الدولية كوثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وغيرها والتي تُهدر حقّ الشعوب في أن تعيش وفق ثقافتها وعقيدتها.

- الأفلام والمسلسلات المتلفزة والأغاني الأجنبية التي تطالعنا في كلّ مكان وهي محمّلة بأنماط الحياة وأساليب التفكير والسلوك الغربية وخاصة أمريكية.

فهذه الوسائل والتحديات تعتبر أداة غزو نفسي وليست غزوا ثقافيا؛ لأن الثقافة لا تُغزى غزوا مباشرا تتأثر به في ذاتها، وإنما تُغزى نفوس أصحاب الثقافة بما يُبثّ فيها. (الأسد، ٢٠٠٠م، مؤتمر اللسانيات)

اللغة العربية والعولمة

بعد انتشار العولمة في أرجاء الكرة الأرضية غزت البلاد العربية أفكار وآراء ونظريات مغرضة، خلاصتها أن اللغة العربية الفصيحة صعبة لأجل نحوها وحروفها وحركاتها وكتابتها، واتّهموها بأنها جامدة و في طريقها نحو الزوال؛ فسعى بعض المستعمرين و العرب المقيمين إلى إحلال اللغات الأجنبية محلّها، فادّعوا أن اللغات الأجنبية حية، إذ تحمل مضامين الحضارة والتقدم، بينما اللغة العربية الفصيحة هي لغة متأخرة، أصيبت بالهرم والعقم، ولذا نادوا بنبذها من البيت العربي والمدرسة والمعمل، وأنكروا عليها حتى قدرتها على تأمين شؤون التخاطب بالأمور اليومية وشجون التحاور بالأغراض المعاشية. (طحان، ٢٠٠٤م، ٣٤-٣٥) وفي حقل متحيّز آخر دعا كثير من المستشرقين وأبناء العرب إلى اتخاذ

اللهجات العامية بدل اللغة الفصيحة لسهولتها وخلوّها من الإعراب والقواعد وكذلك قدرة فهمها لدى جميع العرب.

الإزدواجية والثنائية

وهنا لابدّ من الإشارة إلى مصطلحين أساسيين في هذا المجال وهما: الإزدواجية والثنائية.

الإزدواجية هي وجود لغة واحدة مزدوجة في مجتمع واحد؛ أي تقابل اللغة الفصيحة واللهجات العامية.

أما الثنائية فهي وجود لغتين مختلفتين في مجتمع واحد كاللغة العربية مع سيطرة أو شيوع اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في الدول العربية في إفريقيا.

قبل أن نخوض في تداعيات العولمة على اللغة العربية يجب أن نبيّن الفرق بين الفصيحة والعامية؛ لغة الأدب أو الفصيحة هي اللغة التي تستخدم في تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري عامة، أما لغة الحديث أو العامية فهي اللغة التي تستخدم في الشؤون العادية ويجرى بها الحديث اليومي. والأولى تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عبارتها، والثانية لا تخضع لمثل هذه القوانين لأنها تلقائية متغيرة تتغير تبعا لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم. و وجود العامية بجانب الفصيحة على ما بينهما من اختلاف، ظاهرة طبيعية في كل اللغات كما نجدها في اللغة الإنكليزية والفرنسية والفارسية و...إلخ.

إن اللغة العربية منذ الجاهلية كانت تختلف في لهجاتها، ولكن لم تكن بعيدة عن بعض بُعد العامية عن الفصيحة الحالية. فالإزدواجية اللغوية في العربية نشأت بعد أجيال من أهل الفتح في الأمصار الإسلامية نتيجة للاحتلال والاختلاف بين سَنَنِ اللغة الفصيحة المقعّدة المكتوبة المتروع بها نحو الثبوت، وسنن اللغات المنطوقة المرسلة في الحياة اليومية العامة.

ولكن العربية في واقع الاستعمال اليومي وعلى مستوى عامة الناس أخذت تُطُوِّر نمطا لغويا أو مستوى لغويا مفارقا، ذلك أنه لّما خرج العرب إلى الأمصار فاتحين خرجوا يحملون لهجاتهم المتباينة. وهناك اختلطت اللهجات فيما بينها، كما تلاقت اللهجات العربية ولغات الأمم في الممالك المفتوحة. وكان هذا الاختلاط المباشر الذي أَعقب الفتح أحدَ العوامل في تشكّل اللهجات العامية، فقد أدّى إلى تحوّل ألسنة العرب أنفسهم، كما أدّى إلى تحوّل العربية على ألسنة الأمم التي دخلت الإسلام في الممالك المفتوحة. (موسى، ٢٠٠٦م، ١٣٠)

تطرّقَ العلماء منذ قديم الزمن إلى دراسة العامية وذلك بهدف خدمة الفصيحة. أما وجود الفصيحة في يومنا هذا – في رأي مناضليها– تعتبر مشكلة أرجع إليها أسباب تأخر أبناء العربية. فاقترحوا اتخاذ العامية لغة للأدب والكتابة حتى تكون للعرب لغة واحدة للحديث والكتابة، وليس من العسير أن نفهم مصدر هذه الدعوة في مطلعها كان أجنبيا، إذ اهتم الأجانب بدراسة اللهجات العربية العامية منذ القرن التاسع عشر وذلك عبر مايلي:

– إدخالهم تدريس اللهجات العامية في مدارسهم وجامعاتهم كما فعلته كلّ من إيطاليا والنمسا وألمانيا وإنكلترا.

– اهتمامهم بالتأليف في اللهجات العامية.

وهدفهم من هذا كان لأجل القضاء على العربية الفصيحة وإحلال العامية محلّها. (زكريا، ٢٠٠١م، ٩-٤٢)

فالتآمر على اللغة العربية في العصر الحديث جاء من الغرب بالتركيز وتكريس اللهجات المحلية، فقد كان المستشرقون أول من دعوا إلى الكتابة بالعامية وفي مقدمتهم مثلا المستشرق اليسوعي الأب لامنس، والبعثات إلى الشرق الأوسط في بعض الأحيان اتخذ شكلا تبشيريا، وبعضها اتخذ شكلا فرديا بصورة بعث دبلوماسي أو تاجر مثل لوران دارفيو؛ فهؤلاء أتوا لدراسة المنطقة وفي الوقت نفسه لوضع دعائم ركائز الاستعمار، وضرب أهم المكونات الحضارية لتلك المنطقة ألا وهي اللغة العربية حافظة الدين والتراث والقيم والعادات. (زعتري، ٢٠٠٢م، ٣١)

ففي عام ١٨٨٠ نشر ولهام سبيتا مدير دار الكتب المصرية كتابا باللغة الألمانية، في قواعد العربية في مصر وحاول تنفيذ المخطط الإستعماري للقضاء على اللغة العربية كما ذهبت إلى ذلك الدكتورة نفوسة زكريا في الباب الأول من أطروحتها الموسومة «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر». فكانت هذه الدعوى محل استغلال من قبل الاستعمار الإنكليزي لمصر.

وفي سنة ١٨٨١ دعت مجلة المقتطف رجال الفكر إلى بحث إحلال العامية محل الفصيحة. وكان كتاب لغة القاهرة – الذي ألّفه القاضي الإنكليزي بالمحاكم المختلطة بمصر، ويلمور– محاولة لإظهار هذه الدعوى على أرض الواقع. و قد كان ويلمور هذا أول المبشرين بدعوة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

وفي عام ١٨٩٢ ألقى ويلكوكس خطابا في نادي الأزبكية بالقاهرة، عزا فيه سبب تخلف المصريين – عن التقدم في ميدان المخترعات الحديثة– إلى اللغة العربية الفصيحة. (نور الدين، ٢٠٠٢م، ٨٥)

ومن هذا يتضح أن الدعوى إلى العامية صنيعة عقول أجنبية استهدفت إقصاء الفصيحة عن حياة العرب و إبعادهم عن لغتهم القومية، بل إبعادهم عن الدين الحنيف.

ومن العرب الذين تأثروا بالدعوة إلى العامية إسكندر المعلوف و قاسم أمين و سلامة موسى و أنيس فريحة و سعيد عقل و ... إلخ.

لكن سلامة موسى كان أبعد هؤلاء أثرا وأخطرهم شأنا، لأنه تبنّى آراء ويلكوكس فادّعى في كتابه البلاغة العصرية واللغة العربية أن سبب تخلّف العرب وسبب حرمانهم من معيشة الحياة العصرية والتقدم الصناعي هو تقلبهم بين لغتين: لغة التخاطب (العامية) ولغة الكتابة (الفصيحة). ورأى أنه «يجب ألا يكون للمجتمع لغتان إحداهما كلامية أي عامية، والأخرى مكتوبة أي فصحى، كما هي حالنا في مصر و سائر الأقطار العربية». (م ن، ٨٧)

ويُرجِع سلامة موسى كلّ تخلّف الأمة إلى اللغة، فالمرأة متخلّفة بسبب اللغة، وحياة العرب متخلفة بسبب اللغة، وحياة العرب الديمقراطية متخلفة بسبب اللغة، والأمة العربية متخلفة بسبب اللغة، وقس على ذلك!!

ولكن ثمة مشكلات كثيرة في طريق تنفيذ مشروع الدعوة إلى العامية، منها تباين اللهجات العامية؛ فاذا استطعنا بفرض محال أن نؤلّف كتابا باللهجة المصرية، هل يستفيد منه لبناني شيئا؟ وعلى لهجة أيّة مقاطعة في مصر نعتمد؟ بل أية مدينة، بل أيّة قرية وأيّة حارة نعتمد؟ وكذلك عدمُ صلاحية العامية للكتابة لخلوّها من الروح التي تحملها اللغة الفصيحة تُعدّ من حواجز أخرى لاستخدام العامية بدل الفصيحة. بينما عندنا لغة شائعة معروفة في جميع الأقطار العربية حيث يفهمها كلّ الشعوب العربية. أليس هذه أجدر من تلك؟

فليست العامية بمؤهلة لأن تكون غاية المدى في سياستنا اللغوية، فإن ضيق العامية ومحدوديتها، وغياب نظام لها في الرسم والنحو، وتعدّد العاميات على نحو متماوج متغير يستعصي على الحصر، وانقطاع الأسباب بين العامية وبين تجربة التعبير الأدبي والعلمي، واقتران الفصحى بالقرآن وتراث غني ضخم... كلّ ذلك قد أسفر عن نقض الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصيحة، وهي تجربة من الأمس القريب يُغنينا الاستهداء بها عن إعادة التجربة. (موسى، ٢٠٠٦م، ١٣٤) والفصيحة لم يكن اكتسابها متعذرة حين تتحقق لذلك شروطه، وشروط الاكتساب هي توافر المحيط الإجتماعي لاستعمال الفصيحة والتعرض لها في مواقف الاستعمال، والانغماس المباشر في استعمالها. (موسى، ١٩٩٩م، ١٨٥)

أما اللهجات العامية فحقيقة وضرورة لايمكن غض النظر عنها أو إنكارها ولاسبيل إلى القضاء على اللهجات العامية لأنّ لكل مقام مقالا وإذا وضعنا اللغة الفصيحة موضع العامية لظلمنا أطفالنا وعوامنا.

إذن، اللهجات العامية هي اللغة العربية فليست خطرا؛ بل إنما الخطر هو في الدعاة. وفي الحقيقة هم دعوا إلى شيئين: إما اللهجة المصرية وإما اللهجة اللبنانية، وبطلان هذه الدعاوى واضح. كما بدأت منذ العقد الثالث من القرن المنصرم مناقشات كثيرة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة حول الخط العربي و إحلال العامية محل الفصيحة... وكلها باءت بالإخفاق وبقيت اللغة العربية مرفوعة الرأس. وهذا لا يعني أن معاندي اللغة العربية لن يؤثروا فى هذه اللغة الثمينة، بل علينا أن نقاومهم بشتّى طرق ونبذل قصارى جهدنا في هذا المجال؛ لأن دعوة السوء سريعة الانتشار:

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائ

ومن دعا الناس إلى ذمها ذمّوه بالحق وبالباطل

ثمة تحدٍّ أكبر وأخطر من إحلال العامية محل الفصيحة وهو الثنائية وماتليها من الدعوة إلى استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي والتعليم الجامعي باللغة اللاتينية.

الثنائية تحدٍّ يزحف إلى المدارس والمعاهد والجامعات ويتملك نفوس الأساتذة والطلاب على مختلف مستوياتهم... بل إن هنالك معاهد وجامعات تناضل من أجل تعميم اللغة الأجنبية للذين بين جدرانها ...تحدٍّ يزحف إلى البيوت، فيسلبنا كليا، فإذا الملابس وأنواعها وألوانها وطرازها بلغة أجنبية ..وإذا المآكل وأنواعها وطريقة استهلاكها وقبولها ورفضها من الجيل الناشئ متعلق بمدى تسميتها بالأجنبية..(المعوش، ٢٠٠٢م، ١١٤)

استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية

وإذا أمعنّا النظر في الدعوة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية نجد أنها بدأت على يد المستشرقين في مصر في أواخر القرن التاسع عشر ومن أوائلهم المستشرق الألماني ويلهام سبيتا الذي ألّف كتابا في عام ١٨٨٠ وسمّاه قواعد اللغة العامية في مصر ودعا فيه إلى الكتابة بالعامية وتلك بالحروف اللاتينية؛ يعني دعا إلى أمرين في غاية الخطورة؛ وهما الكتابة بالعامية واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

وبعد مرور عشرين عاما جدّد المستشرقُ الإنكليزي ويلمار الدعوةَ إلى استخدام الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية عام ١٩٠٢. وقد أيّد هذه الدعوة من أبناء العرب أمثال إلياس صالح وعبد العزيز فهمي و ....

وكانت حجة من دعوا إلى تبديل الحرف العربي بالحرف اللاتيني هي أن الضبط والشكل للحروف العربية يؤديان إلى ثقل الكلام والصعوبة في الكتابة والقراءة، كما أن عدم ضبط الحروف بالحركات قد يُسبّب الخطأ في القراءة ومن ثَمّ الخطأ في فهم النص.

ولاريب أن التردد في قراءة بعض الكلمات المحتملة يؤدي إلى رجع النظر في السياق لتقدير وجه الضبط والقراءة الصحيحة. ولكن اقتراح كتابة العربية بالحرف اللاتيني لم يكن خالصا للإصلاح؛ بل وُصم بالمؤامرة. ولا شكّ أن نظام الكتابة العربية ينطوي على مواضع محتاجة إلى تدابير إصلاحية، ولكنّ أولى ما يحتمله المقام هنا أن الدعوة إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني كان تدبيرا يستهدف إخراج العربية من صبغتها الثقافية الخاصة. وذلك أن نظام الكتابة – وإن عُدَّ ثانويا في تعبيره عن الحقيقة اللغوية عند علماء اللسان – لا يلبث أن يغدو رمزا لهوية اللغة وأهلها (موسى، ٢٠٠٦م، ٣٣).

فليس وهما أن تكون الدعوة إلى اتخاذ الحرف اللاتيني لكتابة العربية ولغات أخرى تدبيرا من تدابير الهيمنة يبيته الغرب اللاتيني حين تسنح له الظروف الغلبة السياسية والتفوّق الحضاري. وعلى سبيل المثال فقد فرضت السلطات الفرنسية في الجزائر استعمال الحروف اللاتينية في الكتب المدرسية جميعا في أواخر القرن التاسع عشر. ثم سعت إلى استطلاع إمكان السير في هذه المحاولة في تونس سنة ١٩١٠.

رغم كلّ ما مرّ بنا، أن الدعوة إلى استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي دعوة باطلة نهائيا لأنه:

١: لا يوجد مقابل في الحروف اللاتينية لعدد من الحروف العربية.

٢: لكل لغة طبيعة ولكل لغة حروفها وكتابتها الخاصة بها والحروف العربية ضرورة لايمكن العدول عنها؛ لأن الخط العربي وُضِع موافقا للطبيعة العربية.

ولاننسى أن الكتابة بالحروف اللاتينية ستقطع بين الحاضر والماضي وتَمنَعُنا من الإفادة من تراثنا وهذا هو حال الأتراك الذين انفصلوا عن تراثهم العثماني وذلك بعدما قام مصطفى كمال آتاتورك في تركيا باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

واليوم رغم كل الجهود الحثيثة التي يبذلها العرب المعارضون للكتابة اللاتينية نجد بكل أسف أن الدعوة إلى استخدام الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي عادت في العصر الحديث عودة غير مباشرة كما نرى الآن في الرسائل القصيرة (Sms) أو في الدردشة (Chat) تُستخدم الحروف اللاتينية. أليست هذه دعوة خفيّة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية؟

هذا والذي يُمهّد الطريق لاستبدال اللغة الأجنبية باللغة العربية ويساعد طموحات الخبثاء في تحطيم هذه اللغة هو استعمال اللغة الأجنبية في التدريس الجامعي.

نرى الآن البلاد العربية من المحيط إلى الخليج – ماعدا سوريا – تستخدم اللغة الأجنبية في تدريس العلوم التطبيقية. ويقول بعض إن المصطلحات الأجنبية تنمو نموا يوميا ويُقدّرون أن مئات من المصطلحات تلد يوميا ولا قدرة على ملاحقتها، ولذلك لابُدّ من استعمال اللغة الإنكليزية مع مصطلحاتها أو اللغة الفرنسية مع مصطلحاتها.

والحقيقة أن المصطلح الأجنبي يجب ألا يكون حاجزا بيننا وبين استعمال اللغة العربية في التدريس؛ لأنه لا توطين للعلم في أي أمة من الأمم إلا باستعمال لغتها الوطنية. (من محاضرة الدكتور ناصرالدين الأسد، ألقاها في الجامعة الأردنية بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/٢٨) فلذلك، نستطيع أن نعرّب المصطلحات الأجنبية وإن لم نتمكن من ذلك فنأخذ المصطلحات الأجنبية على شكلها الأصلي ونُدخلها في كتبنا أو تدريسنا دون أن نتخلّى عن لغتنا.

واستعمال اللغة العربية في التدريس الجامعي في الموضوعات التطبيقية أمر ممكن وميسور؛ لأنه عندنا تجارب كثيرة في هذا المجال منها تدريس العلوم الطبية والهندسة باللغة العربية في الكلية البروتستانية السورية التي سُمّيت الجامعة الأمريكية واستمرّ التعليم والتأليف باللغة العربية في هذه الموضوعات في تلك الكلية من سنة ١٨٦٦ إلى سنة ١٨٨٢. وكذلك تجربة أخرى في مطالع القرن العشرين ومازالت مستمرة، هي تدريس هذه الموضوعات العلمية النظرية والتطبيقية في الجامعات السورية (الأسد، ٢٠٠٧، مجتمع المعرفة والتحديات اللغوية).

وفي ظلّ كل هذا نقول إن أكبر تحدٍّ تواجهه اللغة العربية هو عدمُ إيمان أصحاب القرار بها، واعتقادهم أنها أصبحت لغةً من الماضي وأن لغة الحضارة والحداثة والتقدّم هي هذه اللغة الأجنبية (المرجع السابق)... ونعلم أن إيمان الأمة بضعف لغتها، يُسهّل على الأعداء تدميرها. فاللغة هي فكر الأمة، والأمة بلا فكر أمة زائلة.

النتيجة

فهذا واقع اللغة العربية وما تواجهها من التحديات. والسؤال الأساس من هو المسؤول عن هذه القضايا؟ كيف يمكن أن نواجه هذه التحديات؟ وكيف يمكن إحياء اللغة العربية الفصيحة؟

نحن تعوّدنا على أن نُحَمِّل المسؤولية للمستشرقين والأجانب، وهذا فيه جزء كبير من الصحة؛ لأنهم يهاجموننا في حملات مسعورة لكن كلّها لم تنتهِ إلى شيء؛ والذي انتهى إلى شيء هو ما نفعله نحن. وعلى الجميع ألا يألوا جهدا في سبيل مواجهة هذه التحديات و إحياء اللغة العربية الفصيحة، ولذلك:

١: على الحكومات العربية أن تهتم بقطاع التربية والتعليم شكلا ومضمونا، والبحث عن الوسائل الفاعلة لإخراجه من الثنائيات التي تحكمت فيه خلال العقود الماضية.

٢: على المعلمين والأساتذة (النُخَب) أن يتجنّبوا من اللهجات العامية في جميع المواد وجميع المستويات ويلقوا دروسهم ومحاضراتهم باللغة العربية الفصيحة.

٣: على وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة الاهتمام بكشف وسائل العولمة وتقنيتها وطرق مكافحتها و إخبار الشعوب بتداعيات العولمة وآثارها السلبية، وكذلك إنتاج برامج تشجيعية متطورة باللغة الفصيحة قادرة على مواجهة الشبكات العالمية التي تهدف كيان الأمة.

٤: على المجامع والمؤسسات المعنية باللغة العربية عقد الندوات الدولية والاستعانة بتجربة الخبراء والأخصائيين في هذا المجال بغية معالجة تحديات اللغة العربية وطرق الحيلولة دونها.

٥: على الأمة نفسها أن تدرك مدى خطورة هذه التحيات وألا تُلبّي تلك الدعوات الخبيثة التي تُسمَع هنا وهناك لتحطيم لغة القرآن الكريم.

المصادر والمراجع:

- الأسد، ناصرالدين، (٢٠٠٠م). «***العولمة وهيمنتها على الثقافة واللغة***»، عمّان: بحث مقدم لمؤتمر اللسانيات.

- ـــــــــــــ ، (٢٠٠١م). «***الثقافة واللغة العربية في عصر العولمة، حديث في المصطلح والمنهج***»، إربد: مجلة جامعة اليرموك، العدد ٣٩

- ـــــــــــــ ، (٢٠٠٧م). «***مجتمع المعرفة والتحديات اللغوية***».

– زعتري، علاء الدين، (٢٠٠٢م). «***العولمة واللغة العربية***»، كتاب مؤتمر اللغة العربية، عمان، الدورة الأولى.

– زكريا، نفوسة، (٢٠٠١م). «***تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر***»، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية.

– طحان، ريمون، (٢٠٠٤م). «***اللغة العربية وتحديات العصر***»، بيروت: دارالكتاب اللبناني.

– المعوش، سالم، (٢٠٠٢م). «***اللغة العربية وتحديات العولمة***»، كتاب مؤتمر اللغة العربية، عمّان، الدورة الأولى.

– موسى، نهاد، (١٩٩٩م). «***قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث***»، عمان: دارالفكر.

– ــــــــــ ، (٢٠٠٦م). «***الثنائيات في قضايا اللغة العربية***»، عمّان: دارالشروق للنشر والتوزيع.

– نور المدني، علي محمد، (٢٠٠٢م). «***صدى الدعوات إلى العامية***»، كتاب مؤتمر اللغة العربية، الدورة الاولى، عمان: ٨٥